الغربة في شعر عبد الرحمن محمد العمراني ديوان (غريب من اليمن) مثالاً

م.م. جاسم غالي رومي المالكي
قسم الدراسات اللغوية والادبية
مركز دارسات الخليج العربي/جامعة البصرة

المقدمة

مما لاشك فيه أن الاغتراب ظاهرة إنسانية موجودة ومتأصلة عند أغلب المجتمعات البشرية، في شتى الأزمنة. ولهذا يؤكد أغلب الفلاسفة والمنظرين أن التطور الحضاري والثقافي الذي يصيب الشعوب يزيد من تضخم هذه الظاهرة الملازمة لها. أو قد يعود إلى عامل آخر هو ما يشوب هذه الشعوب من نزوات في الحكم والاستبداد، الذي تتركه جماعة متسلطة من الحكام الذين لا يراعون ألا مصالحهم التي يستطيعون من خلالها قضاء حاجاتهم الخاصة وترك شعوبهم بلا مأوى.وهذا ما حصل في بلاد اليمن الذي نحن بصدد دراسة شاعر منها هو(عبد الرحمن محمد العمراني)، من خلال ديوانه (غريب من اليمن) الذي حاول فيه أن يصور واقعة وأحاسيسه، وآراءه ومعاناته الفردية والجماعية، محاولا أن يكون من أحاسيسه هذه نغمات مقبولة وعذبة سيمفونية اغتراب حزينة، وقد ركز على قضية الاغتراب خارج اليمن وداخله. وقد كان الاغتراب في هذا الديوان طريقا إلى اقتحام الكثير من قضايا اليمن المعاصرة والقضايا العربية بشكل أوسع.

لذلك آثرنا أن تكون مادة البحث مكونة من مقدمة موجزة عن فحوى البحث،تلحقها ثلاث عنوانات، تناولنا في العنوان الأول الاغتراب ظاهرة شعرية عند أغلب الشعراء مع

تطبيق من قصائد الديوان . وأما العنوان الثاني فقد درسنا فيه الاغتراب المكاني الذي عاني منه الشاعر في بلده أو في أماكن أخرى كفرنسا مثلا. وقد جاء العنوان الثالث بصيغة الاغتراب الزماني أو النفسي الذي مر فيه الشاعر مطبقا على قصائد ديوانه.

وكان هدفنا من ذلك إبراز قدرة الشاعر اليمني على تجسيد هذه الظاهرة في المرحلة المهمة التي عاشها الشعب اليمني، وهي مرحلة تسلط حكم الإمامة الذي كان على صلة بالدول الاستعمارية في ذلك الوقت ومعاناة الشعب اليمني من جراء هذه الحقبة.

الغربة ظاهرة شعرية:

تعد الغربة من الموضوعات الشعرية عند أغلب الشعراء الذين عانوا غربة حقيقية، وهي واضحة في أدبنا العربي كبقية الأغراض الشعرية الأخرى،مثل الغزل والرثاء والمديح والفخر، بل لعله يتميز بملامح قلما تكاملت في موضوعات أو ظاهرة شعرية أخرى.لذلك اعتدنا أن نرى هذه الموضوعات الشعرية بأطر مختلفة تتميز كل واحدة عن الأخرى ، وهذا يتجلى عند أغلبهم و نخص منهم أبا تمام في حماسته، حيث انقسم الشعر لديه الى اقسامه آنفة الذكر التزم هذا التقسيم في الشعر العربي القديم. أما الشعر العربي الحديث، فقد أخذ منحى آخر وهو:الشعر الرومانتيكي- الرمزي - الواقعي – الحر[1].

وقد حصلت أمور عديدة سعت إلى ترسيخ هذه الظاهرة في كل تشعباتها أي أن: "هناك ظروفا اقتصادية وسياسية – أو حضارية بمعنى أدق- كان لها أثرها في اتجاهات شعر الحنين والغربة خلال سيره وتنقله عبر الزمان والمكان، فقد ضمرت فروع ، ولكن نبتت فروع أخرى،وكان الظن أن التطور الحضاري الهائل الذي يطبع الحياة المعاصرة ، والاتجاهات الأيديولوجية يمكن أن يكون لها أثرها في وقف سير التيار، وتحول الغربة إلى آلفه ،ولكن الواقع غير ذلك،كل ما في الأمر الاغتراب اصبح اغتراباً منظماً"[2].

ولهذا كان معظم الشعراء يتحدث عن الغربة وحب الأوطان وتجليات الماضي والحاضر فقد:كانت مطالع قصائدهم في كثير من الأحيان ، حديثا عن الأطلال ، وإحساسا بالغربة بعد الأنس وحنيناً طويلاً إلى الديار ديار أحبابه الراحلين، كما لاحظ ابن قتيبه – في مقدمة – (الشعر والشعراء)، ولسنا هنا بصدد إحصائيات، وألا لهالتنا وفرة شعر الأطلال، ولكننا بصدد رصد المشاعر"[3].

يقول عبيد بن الأبرص في معلقته واصفاً هذه الحالة:

أقفر من أهله ملحوب — فالقطيبات فالذنوب
وبدلت منهم وحوشا — وغيرت حالها الخطوب
أن يكن حال جمعوها — فلا يرى ولا عجيب

ولاشك أن: "الإقفار والجدب صورة لانعكاس المنظر على نفسية الشاعر الذي أحس بتبدل المكان، وكثرة الوحوش فيه، وينتقل بين الطرق مستوحشا بين (ملحوب القطيبات) ؛ فلا يجد إلا الأمل الضائع، والصورة نفسها نجدها تتكرر في المقدمات الطللية"[4].

وهذا يتمثل عند أغلب الشعراء الذين يميلون إلى الاسترجاع وحب الماضي، إذ: "أراد هذا الشاعر أن ينبهنا على ملامح الماضي المطلق، والحنين المستمر(Nastalgia) يعصره في كل ذكرى وموقف مع الطبيعة، مع نفسه، وأحلامه، إلا إننا لا نلمح فيه السخط على المجتمع، مثلا في كثرة القيود التي يعاني من آلامها الإنسان في باقي المجتمعات على قدر ما نلمح الغربة النفسية الناجمة عن التمزق والتشتت بين الماضي والحاضر،وكذلك الغربة الحضارية الدخيلة التي أثرت في نفسية الشاعر، أثرت عباراته الأدبيه من خلال مشاعره الدفينة مع الذكريات"[5].

ويحدث ذلك أن الغربة في الأدب هي تعبيرعن صورة العامة والخاصة وعن تجليات بالغة الأهمية لدى الشاعر، أي: " تتمثل في الأدب عامة، وفي الشعر خاصة، عن سمة بالغة الأهمية والخطورة ويحلها مكانا، يمكن أن نضعه في مقدمة اهتمامات النص الشعري، حيث تتعدد أنواعه وأشكاله نتيجة للانعطافات الحادة والتغيرات الكبيرة التي تطرأ على العالم وأنظمته وعلى علاقات الفرد ووعيه.وبديهي القول بارتباط القصيدة بزمانها ومكانها وربما ارتبطت كذلك باغترابها، فحينما تسلك القصيدة مسلك التصوير الواضح للاغتراب عبر مضمون أنساني مناسب وصريح فأنها تؤكد نبذها للتصوير الهرموني الذي يوظف الخيال للخروج من رعب تجسيد الاغتراب"[6].

وهذا ما حدا بالشعراء اللذين يعيشون الغربة ان تظهر لديهم النزعة الذاتية الممزقة وعند اغلبهم وذلك في تباين آرائهم في الحقائق النفسية والكونية فكان بينهم من أعتمد الترابط الغريب بين الأشياء،الذي يعجز العقل الواعي عن إدراكه،وجاء بصور شعرية

غريبة وغامضة يعسر على القاري تصورها. ومنهم من أعتمد الفكر الواعي بغية الوصول إلى العقل المجرد[7].

وقد تمثل هذا لدى شاعرنا عبد الرحمن محمد العمراني الذي نحن بصدد دراسة غربته من خلال قصائد ديوانه (غريب من اليمن)، إذ تجسدت بداية الغربة لديه بقصيدة (طالب يماني في بغداد) إذ يرى في بلده الغربة فيحاول أن يرتحل إلى بلد أكثر أمنا وهو العراق وخاصة عاصمته بغداد ويشدو بحنينه لها قائلا:

جئت من صنعاء اشدو	بشعوري وخيالي
فيك يابغداد ارض الـ	ـفن ديوان الليالي
كل زهر في حديقة	يربي صنعاء الشقيقة
وطيور تتغنى	فوقها نشوة طليقة
حملتني الف شوق	واخضرارات وثيقة
لك يابغداد يا أر	ض الحضارات العريقة[8]

يعبر الشاعر هنا عن حبه لبغداد من خلال ما يحمله من مشاعر وروابط قوية كان يمثلها شعوره النفسي وما يجيش في خياله من تصور عن بغداد التي تزهو بربوعها الخضراء لأنها أم الشعر والأدب، أرض الخير والعطاء ويشبه شوقه وحنينه وهو يبتعد عن صنعاء بأنه كالطير المسافر الذي يرفرف بجناحيه طليقا مسافرا تحمله نشوى كبيرة تجاه بغداد الحبيبة من صنعاء وأهلها. وهنا يترك غربته التي كان يعيشها بمجرد خروجه من صنعاء حتى يصل بغداد حيث الحرية وعهد الحضارات العريقة موطن حرية الشاعر التي يبحث عنها - ويقول في مقطوعة أخرى واصفا نفسه وروحه كأنها طفل صغير يجهل أشياء أخرى في حياته إلى أن يكبر ويصبح يافعاً:

جئت والقلب كطفل	في مجال الحب يجهل
نبضه يهتف بالحب	ولكن كيف يعمل ؟
لم يعش لقيا الغرام	واشتياق متبادل
حرم القلب من اللقيا	لانني كنت اخجل
علميه كيف يهوى	كيف بالجرأة يفعل
واعيريه لسان الـ	ـعشق حتى يتغزل[9].

هنا يؤكد الشاعر براءة حبه ويشبه نفسه كطفل صغير لا يفهم معنى الحب الذي يدفعه إلى بغداد وهل يحكم ذلك رباطة جأش أم لا، ويؤكد أنه فقد ذلك في بلده ووجده في بغداد، فهو كطفل يرى في حبه لا يشوبه أي غبار ولم يعهد ذلك من قبل وهذا ما يؤكده في الحرمان الذي يعيشه حتى انه يخجل أن يقول أنا عاشق قادم من بلد آخر وهو صنعاء.ويثبت ذلك لان بغداد بلد الغنى والفن والأدب. وهذه قمة الغربة الروحية والشعرية معاً.

أي أننا نجد أن "الشاعر العربي يرحل تاركاً أحبابه أو يرحل أحبابه و يتركونه نتيجة ظروف اقتصادية، كان يشعر شعوراً عميقاً بالغربة فالحب اللقاء وجداني و مادي والغربة افتراق وجداني و مادي والحب كما قلنا معادل لاستمرار الحياة و خصوصيتها والغربة معادلة لتوقف هذا الاستمرار و معادلة للجدب والجفاف"[10] .

وفي قصيدة أخرى للشاعر عبد الرحمن محمد العمراني بعنوان(يا زميلي الغريب) التي يتحدث فيها عن غربته مع زملائه وما جناه من تلك الغربة وتوظيفه في وطنه الذي يعاني الجهل والظلام و الفقر والحرمان فهو يرتحل غريبا عنه أملا في العودة له ليراه أكثر أمنا واستقرارا فيقول:

يازميلي نحن في غربتنا	نزرع العلم ليجنى في الوطن
نصير لعالم بحثا عن غد	امجد تحمله نحو اليمن
نسحب للشمس الى موطننا	ان يكن اشعاعها علما وفن
وشعاع العلم نلسجه	لظلام الجهل في ارض كفن
هذه الامال للشعب بنا	فاذا مالم تحققها فمذ! ؟
يازميل العلم كن انت على	مستوى امال شعب ممتحن[11].

الشاعر هنا يعيش غربته في موطنه الأصلي حيث يعاني من الجهل والفقر والحرمان والتسلط تحت سبات طويل، لذا يصر الشاعر على عيش الغربة في سبيل وطنه ورفعته فهو يعاني غربة حقيقية بحثا عن غد جميل يصوره في سحب خيوط شعاع الشمس أي الضوء والعلم إلى بلده بدلا من الظلم والجهل ونسجه كفنا لوأد هذا الظلام والجهل معولا على أمال الآخرين بهم وبقدرتهم على فعل ذلك الشيء من أجل بلدهم اليمن.

وفـي قصـيدة أخرى بعنوان (ليلة عيد الميلاد) يسجل الشاعر فيها عمق غربته في بـلاده التـي تعاني الفقر والحرمان نتيجة ما يدور فيها من حرب شعواء، فهو هنا يصف نفسـه بأنـه غريب فيها رغم عيشه في بلد آخر وهو العراق، لذا يصف ليلة عيد الميلاد وكـيف مرت على بلاده ويصور كذلك حالة وجعه الذي يحز في نفسه آلاماء فهو يصف ذلك قائلا:

عيـد الميـلاد بـاوربـا	وبـلادي فيه تعيـش الموت
غنـوا ملوا صوت الافراح	وارضـي تجهل هذا الصوت
سمعـوا الالات تغنيـهـم	الحانـاً للقـرن العـشريـن
لكـن نسـمـع كهـانـا	يتـلـون تـراتيل الماضين
الليـلة عيـد الميـلاد	فـي الدنيـا هل يدري وطني
هـل يـدري وطن يطل ما	لفظتـه اوربـا من زمن؟ [12]

الشـاعر هـنا يجسد حالة من البؤس التي يعيشها بلده، وانه يؤكد حالة أعم وأشمل وهـي عـيش بلـده على مخلفات الماضي السحيق التي خلفها أو تركها الاستعمار القديم وأعـتمدها مـن بعـده حكام ساروا عليها، فيما يتقدم الآخرين بخطوات متتالية معتمدين ماضـي الشـعوب العمـيق ،وأي ظـلام عاشته أوربا في سباتها الطويل ،وأي حضارة استفادت منها أوربا في خلق مستقبلها الجميل.هذا ما دعا الشاعر أن يردد هذا الترتيل ويعيش غربته الاكيده.

الغربة المكانية :

تعد الغربة المكانية من أهم السمات الشعرية لدى الشعراء القدامى والمحدثين، وذلك لمـا تحمـل من دلالات قوية ومتأصلة في أشعارهم التي عبروا فيها عن عمق تجربتهم الحياتـية المليئة بكل تجليات الحياة المعاصرة التي عاشوها وهم يحملون تبعاتها المكانية والنفسـية،لذا نجد:"أن الغربة الداخلية تجسد الألم النفسي، والحيرة في المونولوج الداخلي عن طريق التساؤلات التي تطلق الغربة من الغربة "[13] .

أي أن الشاعر يعبر عن غربته المكانية داخل وطنه ألام كدافع قوي إلى التغيير في واقعـة الـذي يعيشـه متجشمـاعناء ذلـك فـي التعبير عن هذا الألم المتدافع،من هنا

"لا يستطيع - ذاته التحكم بحدودها ،مهما نضجت تجربته الشعرية، ومهما امتدت به خبرة الزمن -لان أخيلة الشاعر الفنية، والمتجددة لا تعترف بالزمن وبطبيعة الحال أن الاغتراب الشعري والحياتي للشاعر يعود إلى عوامل ذاتية وموضوعية ،وعوامل روحية ومادية متداخلة،كما أن فهم الاغتراب، كإمكانية، يرتبط أيضا - بسلسلة من العوامل الذاتية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية"[14].

أما فيما يخص نزعة الغربة لدى بعض الشعراء وخاصة عندما تتعلق بمسألة الوطن الذي يعيش فيه، فتظهر لديه كمشكلة مستديمة يعاني منها بأنه غير موجود في وطنه ولا يحيى الحياة الكريمة التي يحلم بها إذ تتصل مشكلة الاغتراب بمفهوم الوطن، وقد جمع الجاحظ آراء عديد من الفلاسفة في معنى ارتباط الإنسان بالأرض، كارتباط النبات بها، ثم تطور الأمر إلى مفهوم مادي ومعنوي معا، حين أرتبط النبات بها،ثم تطور الأمر إلى مفهوم معنوي،حين أرتبط بقضايا الحرية (لا وطن بلا حرية) والفقر والغنى (الفقر في الوطن غربة والغنى في الغربة وطن)، ولكن الأرض مازالت تشد أبنائها وكما تطورت مفاهيمهم وربما حاولوا التخلص من الغربة عن طريق الرحيل، ومن هنا بقي الشعر العربي الحديث فواحا بزفرات الحنين.

وتتعمق هذه العوامل كلياً في تأصيل هذه الظاهرة ليس لدى الشعراء فحسب ولكن تتعدى إلى حدوث نوع آخر من الغربة قد تكون فردية أو جماعية ويحدث ذلك أن كان الاغتراب المكاني اغترابا فرديا،تخلع القبيلة فرداً، أو ينفي الحاكم فردا،أو تضطر الظروف الاقتصادية أفرادا إلى الرحيل،أما اليوم فتتسع الدائرة وتحتاج إلى تخطيط،وتصل إلى غربة شعب بأجمعه مثلما حدث في فلسطين"[15].

وقد حدث هذا على صعيد الشعراء القدامى وعند اغلبهم،ونخص منهم ذي الرمة، إذ تمثل عنده في تعبيره عن الوحشة والعيش وحيدا في الصحراء القاحلة،نراه يتمثل بهذه الأبيات قائلاً[16] :

عشية مالي حيلة غير أنني بلفظ الحصى والخط في الترب مولع
أخط وأمحو الخط ثم أعيده بكفي والغربان في الدار وقع

فقد صور نفسه وحيدا في العراء إلى جوار بقايا الأطلال ، تعبث يده بالحصى ، كأنما هي قطع التكريات يلمسها فيثيره الحنين ، ولكن إيحاءا قويا بالكآبة والغربة يأتي من توقيع الغربان ، وهي تنعق في رتابة مذكرة الشاعر أنه أمام بقايا خربة لا حياة فيها.

وقد تجسد هذا الموقف مع الشعراء الجاهليين وخاصة شعراء المعلقات فقد عانوا الأمرين في معايشة سقم الحياة وإنكار النفس البشرية وحرمتها وربما كان أمرؤ القيس وعنترة أكثر شعراء المعلقات إحساسا بالغربة فقد هام الأول شريدا يبحث عمن يستعين به في استرداد ملك أبيه والأخذ بثأره،حتى وصل إلى بلاد الروم وهناك أحس بقرب منيته بعد أن امتلاء جسمه بالقروح، وروى له أبو الفرج الأصفهاني بهذه الأبيات التي تفيض لوعة ومرارة وإحساسا بالوحشة:

أجارتنا أن المزار قريب وأني مقيم ما أقام عسيب
أجارتنا أن غربيات هاهنا وكل غريب للغريب غريب

وأما عنترة فغربته نفسيه حيث تنكرله أبوه وعمه وقاسي الأمرين من لونه وعبوديته،وحبه الذي وقفت عبوديته حائلا دونه، وعندما نستمع إلى عنترة يقول:

العبد عبدكم والمال مالكم فهل عذابك عني اليوم مصروف

لعلنا ندرك هنا إحساسه العنيف بالهوان والضياع ،وهو لون من غربة الفرد في بيئته التي يعيش فيها، وهكذا الشأن عندما نستمع إليه وهو يتصف (أنا الهجين عنترة).ولكن عنترة استطاع بعد ذلك التخلص من عبوديته وغربته عن طريق قوته وانتصاراته.

وقد تمثل هذا لدى شاعرنا العمراني في غربته المكانيه إذ يصور غربته في وطنه الأصلي واصفا إياه بأنه عالم من الظلام والعتمة بسبب ما يحويه من عناصر الاستبداد والسيطرة الرجعية التي خنقت أفواه الناس وكتمت حرياتهم،إذ يقول من قصيدة بعنوان (خواطر في الغربة):

نحن رحالان كل تالـه ... في بحار بعدها اليوم ضيق
اترى تبقى شريداً انت ام ... انت ان ارجع الى ارضي رفيق؟
يابلادي شرد الفكر سرى ... نحو عهد فيك امضاه اتقادا
عندنا احلامه ان ازدهرت ... صيرتها النفس الشر رمادا
كلما يقراح ليل قاتم ... جاء ادهى منه حجبا واسودادا
انني اخشى على نفسي غدا ... فيه القى اليأس في الاجواء مادا[17]

الشاعر هنا يكرر الكلمات (شريدا،شرد،الشر) كدلالة على الظلام والخوف من الغد الآتي، وكذلك (الاتقاد، الرماد، الاسوداد) دلالة على النظرة السوداوية التي تطارده في خوض مستقبله وعينه.

وقد عبر الشاعر عبد الرحمن محمد العمراني في قصيدته (متى أعود) عن عمق غربته في وطنه وحرارة العودة اليه وهو يعاني غربة مكانية، ورغبة في العودة، ويقرر حالة أخرى وهي انه إذ عاد إلى وطنه سيصطدم مرة أخرى بغربته في وطنه آلام لذا يقول:

متى أعود؟
متى ستنتهي من الوجود
حكاية حزينة
عنوانها (متى أعود؟)
حكاية كتبتها
بعرقي وبالسهر
بأدمعي ختمتها
بكل أتعاب السفر[18]

هـنا يؤكـد على حقيقة غربته المكانية حيثما نراه يكرر عبارة (متى أعود)، ويردد بعـض الكلمـات مثل (الوجود،السهر، الشعر) وهي معادل موضوعي للقلق الذي يعيشه الشـاعر بعـيدا عن وطنه الذي يعاني الفقر والظلم والجور نتيجة لتسلط أناس لا يعرفون طعم الحياة وقيمتها لدى بني البشر.

وفـي مقطع أخر منها يؤكد الشاعر حقيقة أخرى من حقائق غربته المكانيه بسبب الحنين إلى مواطن الطفولة مكان عيشه الطفولي وذكرياته الأولى لصباه، إذ يقول:

متى متى أعود
لموطن أول مرة رأيت فيه
أوجه الحياة
أعود كي أرى عليه
أخر مرة هنالك
أوجه الحياة
وها أنا غريب
تركت دوحتي التي
في عشها ولدت
وفق أغصان بها
شدوت الحان الامل
وصرت كالطير الشريد
في قفص هنا بعيد
أحلم باليوم الذي
أعود فيه فهو عيد
عيد وأي عيد![19]

يكـرر الشاعر هنا عبارة (متى متى أعود) في درج هذه المقطوعة الشعرية إثباتا لغربته المكانية التي يعاني منها. وكذلك في الوقت نفسه لا يفقد الأمل في عودة الحياة إلى وطـنه من جديد من خلال تكرار عبارة (أوجه الحياة). ويصف نفسه بأنه كالطير الشريد

المتنقل من مكان إلى أخر بحثا عن الاستقرار والامان ولكن لا نجد هذا إطلاقا،وأنه يعاني اغترابا عنيفاً،ولكنه يؤكد أنه حينما يعود أنه سيصطدم بالواقع نفسه ودون جدوى.

وفـي مقطـع أخـر مـن القصـيدة يجعل الشاعر فيها سبب الغربة المكانية لديه والأساسي هو البحث عن المال، لذا يجد في النفط حلا لهذه المشكلة،إذ يقول:

موطنا يقال أنه
يحمل في أحشائه
طفلا عجيبا إنه النفط الثمين
لكن متى المخاض؟
فتلد الحقول
نفطا وأحلاما ومنشآت
وعودة لكل كادح غريب
وقوة تزيد في استقلال موطن عزيز
متى متى الميلاد مولد النقود[20]؟

فالشـاعر يصـف بلده كالمرأة الحامل التي طال مخاضها وهي تحمل النفط الذي تزخـر فيه قاع أرض بلاده فهو يحلم بتفجر هذا الخزين من النفط ويصفه بالوليد الجديد الذي سينقذ بلاده من الجوع والفقر والسبب الثاني عودة أكثر المغتربين الذين خرجوا من هذه البلاد بحثا عن المال والعيش الرغيد.

وفي قصيدة أخرى من الديوان يصف الشاعر لنا غربة شعب كامل عن وطنه الام، إذ يتحدث عن غربة هذا الشعب وهو شعب فلسطين في قصيدته (أغتربات الفلسطينيين)، إذ نرى هنا مقارنته في مفهومه للغربة عن الوطن، فهو إذ يراها ضرورة في غربته عن اليمن بهدف تقدم اليمن، ويراها خيانة للوطن في ترك الفلسطينيين لارضهم، قائلاً:

كل من غادر شبرا
من فلسطين عميل
يترك الأرض لكي يسكن عبري دخيل
يترك الدار فقد قالت إذا غاب العرب
عائدون – عائدون

لم يعد غير التشيد
دعه شبرا عربيا
من صحارى من خراب
ربما ينسب منه
بطل يمحو الضباب
ربما تطلق منه
دانةٌ تكشف في عمق الغبار
بعض شارات النهار[21]

نستخلص مما تقدم أن الشاعر في قصائده هذه يعاني غربة مكانية حاده لما تعانيه بلاده من واقع متردٍ لا ينسجم وتطلعات الشاعر المستقبلية ، فهو يرقب الأمل في العيش الرغيد واستقلال ثروات بلده على النحو الذي يوفر الحرية لكل الشعب .

الغربة الزمانية أو النفسية:

لا يمكننا بطبيعة الحال أن نحدد سمة الغربة النفسية بصورة عامة، ولكن يمكن تحديد الغربة على أنها سمة للتحولات الحضارية والاجتماعية فحسب، إذ أنها سمة النفس الإنسانية كما يقررها الفيلسوف شاخت إذ يقول: "فالمرء لا يمكنه أن يشارك في كافة الجماعات التي ينتمي اليها"[22].

غير أن ذلك يزداد وضوحا واتساعا مع تغير المجتمع الذي يعيش فيه الشاعر وعمق تطوره الحضاري والعلمي. وهذا ما عبر عنه هيجل فأن حجم ذلك يزداد طردياً "مع تزايد الحرية وانتشار التعليم وتصاعد الوعي بالذات"[23]. أي الشعور بالنفس تدريجيا.

ولذلك نجد أن الغربة في حقيقتها شكل من أشكال الوجود الذاتي والنفسي للشاعر،يعبر عنه بشتى أشكال التعبير الوجودي ، وقد علل الوجوديون ذلك بأنه القلق على الذات من الطرف الآخر لذا يجعلها في موقف الدفاع والتحصين ضد العوامل الخارجية بطريقة التوقع أو(التضخم) أو عن طريق مد جسور الانفصال بينها وبين ممتلباتها الحقيقية التي قد تكون في أشكال معينة (الإنسان مثلا أو بعض الأشياء الأخرى أو القيم الثابتة) وكلا الحالتين أصبح (التوقع والانفصال)، قد برزت عند الرومانتيكيين

وانـدمجـتا في أغلب الأحيان أي أنها "خلقت هذه الشخصية لها أمالاً جعلتها تضيق ذرعا بالمجـتمع الـذي تعـيش فيه وبما يسوده من تقاليد (...) ومن الطبيعي أن يصحب هذا الشعور المشبوب آراء وأفكار تتصل بالمجتمع والثورة ومركز الفرد"[24].

وتـتخذ هذه الثورة القائمة على أساس الرفض لما هو موجود والسعي للتغيير الذي عبر عنه أغلب الشعراء في قصائدهم في مواجهة الاغتراب، لذلك تعد التجارب الأساسية التـي ركـزت علـيها الرومانسية وطورتها هي مشكلة " تجربة الفرد في مواجهة العالم وحـيدا،وقد أصـبح ذا كيان ناقص بسبب تقسيم العمل والتخصص،ومن جراء ذلك تفتت الحـياة إلـى أجـزاء صغيرة جدا بدون أي رابط بينها. وفي النظام السابق كانت المكانة الاجتماعية للإنسان تلعب دورالوسيط بينه وبين الآخرين، فهو يواجه المجتمع وحيدا بدون وسـيط، (فأنا المنفردة في مواجهة (اللاأنا) الهائلة، وعلى الرغم من تقوية الشعور بالذات، وسـبب هـذه المواجهـة أوجد شعورا بالغربة أو الاغتراب والهجرة والضياع للإنسان المعاصـر"[25]. وهذه العوامل تؤدي إلى اغتراب كامل يحدث بصورة أوسع على صعيد مجـتمع بأكملـه كما حصل في فلسطين العربية.وقد يحصل الاغتراب لشخص واحد فقط وهذه أبسط صورة للاغتراب الفردي وأن " كان الاغتراب الزماني فرديا نجده على سبيل المـثال عـند المتنبي بقوله، (أتى الزمان بنوه في شبيبته فسرهم وأتيناه على الهرم)، وقد تجـده عـند جماعة،ولكن هذه الجماعة استطاعت أن تقضي على اغترابها الزماني مثلما نجده عند المتصوفة، فالغربة الروحية في التصوف، ينقيها الوصول والحب الإلهي ووحدة الوجود،أمـا المفاهيم المعاصرة فلا مخلص لها الا الثورية الدائمة، والثورية لا يمكن أن تكـون اتجاهـا فرديا الآن،فلم يعد عصرنا عصر بطولات فردية،ومن هنا كانت مرهونة بظـروف وملابسـات عديدة يصعب التكهن بنجاحها في كل حين"[26]. وهذا يتحدد أيضا بطبـيعة الظروف الاقتصادية والاجتماعية التي يعيشها الشعراء ضمن شعوب أو تجمعات سكانية وبمعنى أدق " كان لها أثرها في اتجاهات شعر الحنين والغربة خلال سيره وتنقله عـبر الزمان والمكان (...) وكان الظرف أو التطور الحضاري الهائل الذي يطبع الحياة المعاصـرة أو الاتجاهـات الأيديولوجـية، يمكـن أن يكـون لهـا أثرها في وقف سير التيار،وتحول الغربة إلى ألفة ،ولكن الواقع غير ذلك فكل ما في الأمر أن الاغتراب أصبح اغترابا منتظما"[27]

وقد تجسد هذا النوع من الغربة لدى شاعرنا عبد الرحمن محمد العمراني في معظم قصائد ديوانه (غريب من اليمن) فنجده يقول في قصيدته (أنا.من أنا؟!) وهو يقترب زمانيا وبطـابع رومانسـي بحـت يجسد فيه (معنى وجوده في الحياة) والبحث عن هذا الوجود وتأصيله من خلال قوله:

أنا من أنا ؟!
أنا نغمة حيرى تردد منذ آلاف السنين
وغدا ستعزفها مقادير على ناي حزين
أبدا سيسمعني الزمان
أتصاب من شفة الخلود
ملدام بين مسارح الأحياء يستمع الوجود
لحن الحياة
يشر أنا[28]

الشـاعر فـي هذه الأبيات يؤكد على عمق الذات باستخدام (أنا الذات) التي عبر فيها في أكـثر من مقطع على تأكيد ذاته من خلال تأمله في الحياة التي يعيشها وهو في حالة من الخوف والـتردد منذ آلاف السنين، وهذا الخوف والتردد يأخذ طابع الحزن والخوف من المستقبل القادم الذي يحمل الشؤم والأبدية متصلا بالزمان الذي يعيشه بصـفة (الخلود) منطبعاً بالشقاء الحزينة ، ويؤكـد علـى بقاء هذه الصفة التي لازمت البشر في عالمه المليء بالخوف، وتأكيده في الوقت نفسه على تحديد شخصيته ودورها في هذا الكون العاثلي.

وفي مقطع أخر يعمق الشاعر هذه الحالة من خلال ترديد (أنا الذات الحزينة) بقوله:

أنا من أنا
أنا مهجة ذابت عواطفها على رمل الضياع
وبغابة المجهول يصلب أدمعي هذا اليراع
وغدا سأجتني الذكريات
من حقل أحلام الشباب
قد أينعت أشجار أشجان وسقياها سراب!
نهرا تراه
هلو أنا[29]

وتـزداد عـند الشاعر صفة (الأنا) وذلك للتأكيد نفسه وذاته في هذا الزمان المليء بالضـياع الدائـم، حيث يصور نفسه كالماء حين يروي الرمال الضمأنه مصيره التبخر والانزواء تحت الرمال، ويصور نفسه كذلك أنه في عالم المجهول خاصة في لفظ (الغابة) التي يحكم فيها بشريعة الغاب القوي يأكل الضعيف، وكذل يؤكد غده الناصع الجميل الذي سـيأتي مـن أحلام الشباب الذين يؤكدون أصالة الماضي والحاضر، ويشبه اندفاعه هذا بجريان النهر وانسيابه نحو هدفه الحاضر والمستقبل.

ويصر على هذه السمة في مقطع أخر من قصيدته ويؤكد على(الأنا الذاتية لديه)، إذ يقول:

أنا. من أنا؟!

أنا سندباد عاد يحمل لاهثا خلفي حنين

غرقت سمير أمسي أحلامي بقعر الرافدين

سأعود أروي في اليمن

رحلات قلبي في العراق

قد كنت في جنات بابل أمتطي خيل المشاق

في لا اتجاه

بحر أنا[30]

الشـاعر يحاول هنا أن يؤكد إثبات ذاته المتمثلة بـ(الأنا) الذاتية حين يلمح أو يذكر بأنه سيرجع إلى بلد يصبح فيه غريبا كما أرتحل عنه في البداية، وبعمق حالة أخرى هي حـبه لـبلاد الرافدين العراق لأنه وجد فيه منابع الحب والوفاء بأرضه المعطاء وخيراته الوفيرة،وحريـته الواسعة،ويجسـد فـي نفسه المتعة والشوق لتحقيق ذلك في اليمن بنفس جياشـة إلـى التحرر من كل قيود الرق والعبودية،التي يعاني منها بلاده وضياع الزمن الحاضـر والمسـتقبل. لكـن فـي النهاية يحدوه الأمل والشوق لذلك فتجيش في صدره العواطـف والعشـق تجـاه محبوبة وطنه رغم كل الأحوال التي يعيشها معبرا عن ذلك بكلمـات الـرثاء البكاء الهوى أو العشق الأبدي مجسداً في ذلك ألانا أو الذات النفسية،إذ يقول ويصر على ذلك:

أنا. من أنا؟!

أنا عاشق بالصمت يعزف قلبه لحن الغرام
ويعانق الأوهام يلثم جدوده من كلام
فأذا تجهز للرحيل
ألقى بأثقال الفؤاد
أفضى إلى المحبوب بالأسرار بالماضي الميد
ماضي هواه
راث أنا. باك أنا . هاو أنا
هذا أنا .هذا أنا. هذا أنا[31]

باستخدام (الأنسا الذاتية) يقرر حالة بلده المستديمة حتى تحقيق كل أمانيه بالحرية والازدهار.

وفي قصيدة أخرى له يجسد فيها واقع غربته في ذكرياته مع حبيبته بعنوان (الذكريني) مصورا اغترابه الزماني وتواقع الحب مع حبيبته التي عاني معها غربة الزمن وتجلياته الوقتية محاولا إبراز هذا الواقع بصورة أكثر رومانسية وشاعرية من خلال تكراره لفظة (الذكريني) في مطلع القصيدة وفي وسطها وفي نهايتها.إذ يقول:

الذكريني
الذكريني في الأصيل
عندما أرتقب الليل الطويل
وسميري فيه ذكرى عهد لقيانا الجميل[32]

يكرر الشاعر هنا لفظة (الذكريني) في عدة أوقات منها وقت الضحى أو الأصيل في قمة تلألؤ الشمس،وفي ظلام الليل الطويل حين تهيج العواطف والأشجان ويخلد المرء إلى ذكرياته الحزينة أو المشوقة مع حبيبته ،ولكن يجمع ذلك ناموس واحد وهو اللقيا والافتراق وتجديد العهد بين الحبيبين.فهو يعاني اغترابا حتى مع من يحب وهو ما يعبر عليه في مقطع إذ يقول:

والذكريني
الذكريني في المساء
عندما يظلم كوخ البؤساء

وفؤاد حرم اللقيا فكل تعساء
واذكريني
اذكريني في السحر
بعدما يرقد سمار السمر
حين لا يسهر ألاي وشوقي والقمر[33]

يعمـق الشاعر اغترابه الزماني أو الرومانسي من خلال الواقع الذي يعيشه الفقراء والحرمان الذي يقيدهم والواقع المزري وانعدام الحريات الشخصية لذلك يجعل من هذا كله مـرآة لاغترابه في وطنه وعن حبيبته ، كمـا في اسـتخدامه الكلمـات (يؤس ، ظلم ، تعس.....)، مؤكداً تلاصق ليلة وسحرة مع سمار العشق والطرب أو في مسامرة حبيب لا وجـود لـه مطلقـا تعبـيرا عـن الـذات مـع الـذات الأخرى . كما في الكلمات (سمار ،السمر ،السحر ،السهر).

أمـا فـي المقطـع الأخير من القصيدة فيصور آخر زمان الكون و هو الصبح و إشراقاته الجميلة مع تكرار في كلمة اذكريني،إذ يقول:

اذكريني
اذكريني في الصباح
و شعاع الفجر في الأفاق لاح
حينها تشرق ذكراك بقلب ما استراح[34]

نسـتخلص مـن ذلك إن الشاعر يعاني اغتراباً زمانياً في وطنه و مع أحبابه الذين يعيشـون معـه،وهذا الاغتراب ناتج عن فقدان الحريات في بلده وتسلط روح الأنانية في إدارة الأمور مما حدى بالشاعر أن يترك وطنه و الذهاب إلى بلد اكثر أمنا واستقرارا هو العراق بلد الحريات والخير والعطاء.

الخاتمة و نتائج البحث:

يـتحدد مفهـوم ظاهـرة الغـربة في الشعر بأنه نتيجة للعوامل النفسية والمكانية ، والظـروف الاجتماعية الخاصة التي تعصف بالشعراء في المجتمعات الإنسانية القديمـة والحديثة فتجعل هذه الظروف منهم حالة خاصة و متميزة يتفرد بها أكثر من شاعر في

هـذا المضـمار مـن ألـوان الشعر والأدب بصورة عامة . وهذا ناتج عن تجليات أو إرهاصـات الشاعر في مجتمع ما . ويكون هذا على شكل صراع يحتدم بين الشاعر وقيم مجتمعه الداخلية التي قد تكون عائقا أمام تطلعاته.

فتخلق لديه نزعة لهروبه من هذا الواقع المرير،وهذا ما حدث لشاعرنا عبد الرحمن محمـد العمراني الذي اصطدم بظروف واقعة في بلاده التي تعيش تحت حكم رجعي لا يعـرف مقـدرات شعبه ، لذا صور لنا هذه التجليات عبر قصائده في ديوانه (غريب من اليمن) مجسدا فيها جل خلجات غربته أملا في تغير واقعة هذا عبر المناجاة الإنسانية التي جسـدت عمق غربته في موطنه الأصلي اليمن. محاولا ردم هذه الفجوة التي خلقتها هذه الظـروف القاهرة. وما جاشت به قريحته الشعرية من معالجات جمة لواقعة، وظهر ذلك على شكل واقع رومانسي حالم بهذا التغيير تمثل بالعوامل الآتيه:

1- معانـاة الشاعر وغربته النفسية قد تجسدت عبر مجموعة من قصائده التي حملت عناويـن شـتى منها (أنا من أنا) ، و(أذكريني) أكدت واقع اغترابه النفسي والروحي المرير.

2- تعمقـت معانـاة الشاعر في غربته المكانية،حتى أنه بدأ يشعر بأنه غريب في وطنه الأصـلي (اليمن) ، تمثل في مجموعة من قصائد ديوانه منها (خواطر في الغربة) و(متى أعـود) التي عبر فيها عن قمة اغترابه في بلده ، واصطدامه بواقعة المرير مرة أخرى . وكأنه لم يحصل شيء من التطور والنهوض.

3- عـبر الشـاعر عـن عمق تجلياته هذه (بالشعر) كأداة للتنفيس عن ذلك ونجاحه في قصائده (طالب يماني في بغداد) التي عبر فيهاعن حبه للعراق وعاصمته بغداد.و(يازميلي الغريب) كانت خير تجسيد لهذه الظاهرة.

الهوامش والمصادر:

1- يـنظر: د.ماهر حسن فهمي: الحنين والغربة في الشعر العربي الحديث، معهد البحث والدراسـات العربـية، 1970، وينظر: علي مجيد عبد علي: الإغتراب في شعر ما بعد الـرواد ، رسـالة ماجسـتير مطبوعة على الالة الكاتبة ، كلية الآداب-جامعة البصرة ، 1997، ص1.

2- د. ماهر حسن فهمي: مصدر سابق، وهلا عبد اللطيف قصير :الاتجاه الرومانسي في شعر الامارات ، اتحاد كتاب الامارات – الإمارات العربية المتحدة،1999، ص94.

3- د. ماهر حسن فهمي، مصدر سابق.

4- المصدر السابق ، ص7-8.

5- وهلا عبد اللطيف قصير ،مصدر سابق ،ص54.

6- علي مجيد عبد علي، مصدر سابق ،ص12.

7- امـــية حمدان: الرمزية والرومانتيكية في الشعر اللبناني، منشورات وزارة الثقافة والأعلام، دار الرشيد للنشر،1981، ص7.

8- عـــبد الرحمـــن محمد العمراني: ديوان غريب من اليمن، مطبعة اليمن السعيد ، 1971، ص6-7.

9- المصدر السابق ، ص7-8.

10- د. ماهر حسن فهمي، مصدر سابق ، ص111.

11- عبد الرحمن محمد العمراني ،مصدر سابق ،ص21-22.

12- المصدر السابق.

13- هلا عبد اللطيف قصير، مصدر سابق، ص99.

14- عزيـــز ســـيد جاسم: الاغتراب في شعر وحياة الشريف الرضي ، دار الرشيد للطباعة، بغداد 1983 ،ص10.

15-المصدر السابق ، ص5.

16-د. ماهر حسن فهمي، مصدر سابق ،ص7-8.

17- عبد الرحمن محمد العمراني،مصدر سابق ،ص65.

18-المصدر السابق ،ص20.

19-المصدر السابق، ص69.

20-المصدر السابق ، ص70.

21- المصـدر السابق ،ص83-84.

22- رتشـــارد شـــاخت : الاغـــتراب،ترجمة كامل يوسف حسين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 1980 ،ص49.

٢٣-المصدر السابق ،ص٥٤.

٢٤- محمد غنيمي هلال: الرومانتيكية، دار الثقافة - دار العودة، بيروت، ١٩٧٣، ص١٢٣.

٢٥-عبد الأمير حسن عودة آل كزار: الغربة والاغتراب في الشعر الكويتي والبحريني ،رسالة ماجستير بالآلة الكاتبة، كلية الآداب - جامعة البصرة ، ١٩٨٩، ص٢٥.

٢٦- د. ماهر حسن فهمي، مصدر سابق ،ص٥-٦.

٢٧-المصدر السابق.

٢٨- عبد الرحمن محمد العمراني ،مصدر سابق ،ص٤٣.

٢٩-المصدر السابق ، ص٤٤.

٣٠-المصدر السابق،ص٤٤-٤٥.

٣١-المصدر السابق ، ص٤٥.

٣٢-المصدر السابق ،ص٥٢.

٣٣-المصدر السابق ،ص٥٢.

٣٤-المصدر السابق ،ص٥٣.